الإسلاموية والإخوان المسلمون

في إطار اجتماعي أوروبي جديد

إبراهيم لايتوس
ويم فان لاير

المركز العربي لدراسات التطرف
The Arab Center for Extremism Studies

جميع الحقوق محفوظة © 2023

المركز العربي لدراسات التطرف
The Arab Center for Extremism Studies

مقدمة

تعدّ جماعة الإخوان المسلمين من بين الحركات الإسلامية العديدة التي ذاع صيتها في وسائل الإعلام العربية بعد اندلاع الربيع العربي في عام 2011، وقد حظي تأثير وحجم نشاطهم الإسلامي والديني بأبحاث وآراء واسعة النطاق غالبًا في ارتباط بموضوعات مثل التطرف العنيف والتشدد والإرهاب، كما ركز العديد من الخبراء والتقارير الأمنية في أوروبا على الإسلام السياسي وطريقة عمله.

يُعرف النشاط السياسي الإسلامي والمثالية بالإسلاموية. ومع ذلك، لا زال معظم الناس، بما في ذلك جزء كبير من المسلمين أنفسهم، يجدون صعوبة في التمييز بين الإسلاموية والإسلام. ولذلك، فإن التعاليم والمذاهب والتصريحات والأفعال التي تحرض عليها الإسلاموية، غالبًا ما تكون ممثلة للإسلام ومتوافقة معه. وبطبيعة الحال، فإن وضع الاثنين في كفة واحدة، هو إلى حد كبير محور تركيز الإسلام السياسي من أجل كسب الدعم لأهدافهم السياسية.

ونتيجة لذلك، فإنه من الصعب للغاية على الحكومات الأوروبية أن توازن معركتها ضد الإسلام السياسي الذي يرفض القيم والحضارة الغربية، وغالباً ما يلهم التشدد والتطرف العنيف من ناحية، ومنع تنفير عموم المسلمين - داخل أوروبا وخارجها – خلال العملية التي يبدو فيها أن عقيدتهم تتعرض للهجوم ودليل على الإسلاموفوبيا والوصم. وتستخدم الجماعات الإسلامية والسياسيون والأنظمة ذلك، لزيادة طمس التمييز وتوجيه المشاعر العاطفية، مما يسبب المزيد من الاستقطاب. وبما أن أيديولوجيتهم تعتمد بأكملها على عدم التوافق بين الإسلاموية والمجتمع العلماني الغربي، فإن أي انتقاد أو قمع للإسلاميين تتم إعادة صياغته، حيث يكون المسلمون هم الضحايا مرة أخرى والدليل على أيديولوجيتهم.

ينبغي اعتبار الرسالة التي وجهها تجمع المساجد والجمعيات الإسلامية في منطقة إيل دو فرانس إلى الرئيس الفرنسي ماكرون في 7 أكتوبر من هذا المنظور، وهي الرسالة التي حذروه فيها من الإفراط في الخطابة والتعميمات والوصم والسياسات التي من شأنها أن تنفر الغالبية العظمى من المسلمين في أوروبا الذين ليس لديهم انتماء أو ميل إلى الإسلام السياسي؛ لأن مثل هذا التوصيف سيجعل الحوار البناء مستحيلاً.

وبدلاً من المساواة بين الإسلاموية والإسلام، من المفيد تحليل الجماعات الإسلامية مثل جماعة الإخوان المسلمين من خلال النماذج والنظريات المختلفة التي يتم تطبيقها في دراسة الحركات الاجتماعية مثل حياة السود مهمة، والمدافعين عن حقوق المثليين، ومجموعات العمل البيئي وغيرها - مع لجوء بعضهم إلى العنف. إذن، هل حركة الإخوان المسلمين خطية نمطية (هابرماس) أم إنها دورية (تورين)؟ ما هي الاستراتيجيات التي يطبقونها ومعنى أفعالهم؟ ما هو التغيير الاجتماعي الذي يهدفون إلى إحداثه؟ ومن هذا المنظور، هل جماعة الإخوان المسلمين، ومن أجل تحقيق أهدافها، على استعداد لاحترام الدولة الدستورية الديمقراطية ومسارها في أوروبا؟ هل ينخرطون في خطاب مزدوج، مع سردية واحدة في تواصلهم الرسمي مع العالم الخارجي، لكسب القبول وتجنب التدقيق من جهة، وهدف واستراتيجية خفية داخليًا للتخريب من جهة أخرى؟

يميل المؤلفون الذين يدافعون عن الإسلاموية إلى التركيز على الحركات الإسلامية، بما في ذلك جماعة الإخوان المسلمين، باعتبارها نشأت نتيجة لعوامل خارجية مثل القمع الناجم عن الاستعمار أو الأنظمة الاستبدادية في أجزاء من العالم العربي. وعلى هذا النحو، فهي ليست أكثر من أسباب مبررة ضد المحتل الاستعماري أو القمع الاستبدادي أو أي شكل آخر من أشكال الظلم. ومع ذلك، خلصت أبحاث أخرى إلى أن جوهر الإسلاموية هو المثالية الحصرية والشمولية التي لا ترفض فقط المجتمع الغربي الحديث وقيمه بشكل أساسي وجذري، ولكن أيضًا كل من لا يشترك بشكل كامل في أيديولوجيتها ومبادئها.

ليس من الضروري بالطبع، أن يكون الاثنان في تناقض مع بعضهما البعض، حيث يمكن للحركات أن تبدأ بهدف غير سياسي معين وتتطور تدريجياً إلى حركة مثالية وسياسية وحتى راديكالية بالكامل، ويكمن التحدي في أن الخط الفاصل بين النشاط الاجتماعي والسياسي من جهة، والتطرف من جهة أخرى ليس واضحا، سواء من وجهة نظر قانونية أو أخلاقية أو اجتماعية. لقد بدأت العديد من العادات السياسية والاجتماعية والحقوق المدنية المقبولة على نطاق واسع الآن كشكل جذري من أشكال المعارضة للوضع الراهن.

وبالتالي، فإن أفضل طريقة لفهم الدوافع الحقيقية والتطور المحتمل لجماعة الإخوان المسلمين هي تحليل أساسها الأيديولوجي والخطابات الداخلية لقادتها الروحيين. وهنا تثير تقارير أجهزة الاستخبارات القلق بشأنها. ويشير الإخوان المسلمون إلى «خطابهم المزدوج» المعتاد واستخدامهم الشائع لـ «السياسة الواجهة»، ويخفون انتماءهم الأيديولوجي الحقيقي وأهدافهم لكل من المسلمين وغير المسلمين، وهو تكتيك يذكرنا بذاك في الطوائف والمجتمعات السرية.

فكيف تختلف مُثُلهم الإسلامية عن الإسلام؟

الإسلام مقابل الإسلاموية:

كان أول عالم مسلم يذكر ويميز الفرق الجوهري بين المسلمين والإسلاميين –منذ أكثر من 1000 سنة- هو المتكلم والإمام أبو الحسن الأشعري (توفي عام 935م). وفي كتابه المعنون «مقالات الإسلاميين»، ميز الأشعري بين تعريفين محتملين للإسلام كمفهوم معياري: أحدهما هو الدين، بناءً على أركانه الخمسة كتطبيق عملي؛ والآخر هو تسييس الإيمان، وتحويله إلى أيديولوجية نفعية لتحقيق مكاسب سياسية والسلطة.

وفي هذا السياق، يجب على المرء أن يعيَ تصريحات الرئيس الفرنسي ماكرون، حتى إنه وصف الإسلام المتطرف بأنه شكل من أشكال الانفصالية الإسلامية. وبينما أحدثت الضجة المتوقعة بين المسلمين (كثير منهم لم يتمكنوا أيضًا من التمييز بين الإسلام والإسلاموية)، فقد كانت تستهدف بشكل أساسي جماعة الإخوان المسلمين والمنظمات الشقيقة لها. وقد تم التأكيد على وجهة النظر نفسها في بيان جيرالد دارمان، وزير الداخلية الفرنسي، الذي يهدف إلى الحد من تأثيرات الإسلام السياسي الأجنبي ويشير بوضوح إلى أنه لا يوصم جميع المسلمين بأنهم متطرفون سياسيون و/أو متشددون. بالإضافة إلى ذلك، قدم ماكرون مقترحًا لتعزيز القانون المتعلق بفصل الكنيسة عن الدولة، والذي يعود تاريخه إلى عام 1905، بهدف منع تأثير الإسلام السياسي على مؤسساتها وعملياتها الديمقراطية.

وكما ذكرنا، فإن الشكل الحالي للنشاط الإسلامي أو الإسلاموية غالبًا ما يُرجع إلى سقوط الخلافة في نهاية الإمبراطورية العثمانية كحركة معارضة منظمة ضد مستعمريها الجدد. وبدلاً من أن يعزو هزيمة الافتقار إلى التكيف والانفتاح والابتكار إلى الأفكار الجديدة والتقدم في العلوم والتكنولوجيا في أماكن أخرى من أوروبا، أطلق مؤسس أول حزب إسلامي، حسن البنا (ولد عام 1906 وقُتل عام 1949) بالمدرسة الثانوية في مسقط رأسه حركة دينية تحظر أي شيء غير مسموح به صراحة في الإسلام (عكس الفهم الإسلامي التقليدي). سميت منظمته «منع المحرمات»، والتي تعني «حظر الانحطاط الديني»، لتصير نوعا من الشرطة الأخلاقية لمكافحة الانحطاط الذي سببه المستعمرون البريطانيون.

إنه نمط مألوف للغاية: نظام (في هذه الحالة الإسلام الذي تمتع ذات يوم بقرنه الذهبي بسبب انفتاحه على المعرفة والتأثيرات الخارجية كوسيلة لتعميق فهم دينهم وتعزيز الرفاهية) يتعرض لصدمة نفسية بسبب حالته المؤسفة؛ ويلقي اللوم على أي شيء وعلى كل شيء إلا نفسه؛ وبذلك ينفر كلاهما من مصدر إلهامه وتجديده من جهة والعالم الخارجي من جهة أخرى؛ ومن ثم الوقوع في نمط معزز ذاتيًا من القمع الداخلي الخارجي والإحباط والعصابية؛ كل ذلك مع التمسك بفكرة الماضي المثالية والراكدة للتاريخ أو المستقبل حيث تعتمد على رؤية عالمية مستقطبة بالأبيض والأسود. فقط لو...

ولذلك ليس من المفاجئ -كما يعلمنا التاريخ بأشكال عديدة من الأنظمة الأيديولوجية المنغلقة- أن تتراكم الإسلاموية أخيرا في إيديولوجية وعقيدة شمولية، لخصها الباحث بسام طيبي في ست نقاط:

* تفسير (أو اختزال) الإسلام، باعتباره نظاما إسلامياً (أيديولوجية الدولة والنظام)؛

* إلغاء تمثُّلِ اليهود على أنهم العدو الأبدي على أساس الاعتقاد بأن اليهود يسعون (ويسيطرون حاليا) على نظام عالمي يعتبر أخلاقيا نقيضاً للأطروحة الإسلامية.

* إسلامية مؤسساتية عقائدية لا مجال فيها للديمقراطية أو للتأثيرات الخارجية.

* إعادة صياغة مفهوم الجهاد من النضال الشخصي ضد أهوائه وظلمه، إلى الإرهاب، وحتى استهداف المدنيين الأبرياء والمسلمين الذين لا ينتمون إلى مذهبهم.

* إعادة التفسير التحريفي للشريعة من خلال إخراج الآيات والمفاهيم القرآنية من سياقها لتناسب سردها.

* الرفض الشديد لأي علمنة بإعلانها فوراً بدعة أو حراماً.

هذا ونرى اليوم، أن الحركات الإسلامية تنشط في أكثر من 70 دولة حول العالم، وتشمل هذه الحركات تلك الشيعية النشطة في إيران ولبنان واليمن والحركات السنية التي تعمل بشكل رئيس، انطلاقاً من تركيا والشرق الأوسط.

وتُشكل جماعة الإخوان المسلمين في صيغتها الحالية حركة جماهيرية إسلامية ترتكز رؤيتها العالمية على شعارها وإيمانها بأن «الإسلام هو الحل»، ولها هدف معلن يتمثل في إعادة إنشاء نظام عالمي (الخلافة) على أساس الشريعة الإسلامية.

لتبرز فروع مختلفة تدار حالياً بشكل مستقل إلى حد كبير عن جماعة الإخوان المسلمين، مثل حركة النهضة في تونس، وحزب العدالة والتنمية في تركيا، وحماس في فلسطين، لكن على الرغم من عملياتهم المستقلة، إلا أنها تتقاطع مع بعضها البعض ويؤسسون أيديولوجيتهم في الغالب على نفس الأسس التاريخية والأيديولوجية ويتبعون خطابًا وأيديولوجية وأهدافاً شمولية متشابهة جدًا.

تُظهر دراسة لأيديولوجية جماعة الإخوان المسلمين وبنيتها في أوروبا العديد من العناصر المذكورة أعلاه، على الرغم من أنه يجب الأخذ بعين الاعتبار الاختلافات الجوهرية في كيفية عمل جماعة الإخوان المسلمين في المملكة المتحدة وأوروبا، خاصة بعد خروج بريطانيا من الاتحاد الأوروبي، مما يزيد من تعقيد عمل الأجهزة الأمنية. ويمكن ملاحظة هذه الاختلافات عند دراسة التزامن في التمويل والعمليات والأيديولوجيات التي تتباين بشكل كبير بين جماعة الإخوان المسلمين في بريطانيا وبلجيكا وهولندا. وقد درس خبراء مثل زمني تلك الترابطات المتبادلة قائلين: «إن العلاقة بين الحركات والأيديولوجية هي علاقة متزامنة ومترابطة. حيث تؤثر الأيديولوجية على تصرفاتهم وبنيتهم وأنماط تعبئتهم، والعكس صحيح، فالاستراتيجية والبنية والإجراءات تؤثر على الأيديولوجية.»

المراحل المختلفة في تطور ومستوى العضوية في جماعة الإخوان المسلمين

عرفت جماعة الإخوان المسلمين ثلاث مراحل رئيسة من التطور:

- مرحلة التأسيس ونشر أفكار الحركة (1928)

- مرحلة المأسسة والتسييس (1945)

- مرحلة العمل والمواجهة (1949 حتى يومنا هذا)

تأسست جماعة الإخوان المسلمين في مصر على يد حسن البنا كمجموعة عمل إسلامية وحركة اجتماعية خرجت إلى الشارع لمعارضة القوى الاستعمارية ومؤيديها المحليين بطرائق مختلفة. وبعد حصول الدول العربية على الاستقلال في الستينيات والسبعينيات من القرن الماضي، تحول تركيز الجماعة إلى مكافحة الفساد والظلم في ظل النظام الاستبدادي الجديد، مما منحهم المصداقية والشرعية والدعم من قبل نسبة كبيرة من المضطهدين في مصر.

وبتوجيه من مصطفى مشهور، الزعيم الروحي الرابع، توسعت جماعة الإخوان المسلمين على المستوى الدولي، مستفيدة من موسم الحج السنوي إلى مكة لإقامة علاقات دولية. وتأسس أول فرع خارج مصر في جيبوتي عام 1935، على الرغم من أن الأمر استغرق رسميًا حتى عام 1945 لإنشاء منتدى دولي.

وفي عام 1991، وأثناء التقييم الدولي الأول لأنشطتهم العالمية في إسطنبول، أعلنت جماعة الإخوان المسلمين أن لها الحق في استخدام كل الوسائل الممكنة للتغلب على معارضة الدول والحكومات وتحقيق أهدافها.

ومؤخراً، في عام 2019، انعقد مؤتمر آخر في إسطنبول بعنوان: «أصالة الفكر واستمرارية الرسالة»، حيث أدت 500 هيئة تابعة قسم البيعة لإبراهيم منير، الزعيم الروحي وأمين سر جماعة الإخوان المسلمين والأمين العام للذراع العالمية لجماعة الإخوان المسلمين. ويحل منير محل محمد بديع الذي اعتقل وسجن في مصر، وهو أيضًا المتحدث الرسمي باسم جماعة الإخوان المسلمين في كل من بريطانيا العظمى وأوروبا، كما طلبت جماعة الإخوان المسلمين من أعضائها الالتزام بالتحضير للاحتفال بالذكرى المئوية لتأسيسها.

في عام 1989، تم اختيار المملكة المتحدة لإنشاء (اتحاد المنظمات الإسلامية في أوروبا)، وهي منظمة جامعة للإخوان المسلمين في أوروبا، وتتكون من هيئات تنفيذية مختلفة: مجلس الشورى (لجنة استشارية للتخطيط والاستراتيجية) والجمعية العامة والمجلس الدستوري والمكتب الأوروبي الذي يتولى القيادة العامة لاتحاد المنظمات الإسلامية في أوروبا وله صلاحية تنفيذ جميع المشاريع. ويعدّ سمير فلاح الأمين العام الحالي لاتحاد المنظمات الإسلامية في أوروبا.

يمثل اتحاد المنظمات الإسلامية في أوروبا اليوم 30 منظمة إسلامية رئيسة موجودة في كل دولة في أوروبا، بالإضافة إلى أكثر من 1000 مجموعة وجمعية محلية (معظمها منظمات محلية غير ربحية ومساجد). كما أنها تضم أكثر من 300 إمام ينشطون ضمن التنظيم الهيكلي للجمعية الأوروبية للأئمة وكمرشدين روحيين.

تضم جماعة الإخوان المسلمين أربعة أنواع مختلفة من العضوية، ولكل مستوى تركيز مختلف ودور والتزامات وولوج إلى المعلومات، وبالتالي يتم منح كل مستوى نسخة مختلفة من دوافع وأهداف وأيديولوجية جماعة الإخوان المسلمين.

الأخ المساعد: هو الأخ المتعاطف الذي يوقع على عضويته ويسدد مبلغ اشتراكه.

الأخ المنتسب: الأخ المنتسب المتمسك بإيديولوجية الحركة، والذي يقوم بنشرها.

الأخ العامل: يشارك بفعالية مع عائلته في اللقاءات الأيديولوجية، ويسافر ويقدم التبرعات لـ "صناديقهم الإنسانية".

الأخ المجاهد: هو الذي تم اختياره بشكل سري وأجرى تدريباً خاصاً، ويتبع تعليمات الهيئة المركزية ولجنة الإشراف بدقة.

الإخوان المسلمون كحركة سياسية

المنظمات الفعالة هي تلك التي تم إنشاؤها لتحقيق الأهداف التي تنطوي على تغيير مجتمعي جذري، وبالتالي تهدف إلى تجنيد وتعبئة الأعضاء المتعاطفين أو الراغبين في المشاركة الفعالة في هذا الهدف. وفي حالة جماعة الإخوان المسلمين، فإن الكثير من عمليات التجنيد واكتساب العضوية في البلدان التي تنشط فيها هي نتيجة للدعاية النشطة التي تعود إلى الخمسينيات.

وعلى الرغم من كونهم هدفًا لحملات القمع بشكل منتظم، فقد تمكنت جماعة الإخوان المسلمين من التكيف بشكل جيد مع السياسات والإجـراءات التي اتخذتها الحكومات ضدهم بهدف الحد من نفوذهم وعملياتهم ومعارضتهم. ومع استبعادهم من العملية السياسية، فقد أصبحوا متشددين على نحو متزايد، بدءاً من مقتل رئيس الوزراء المصري النقراشي في عام 1948، ليصيروا أكثر تطرفاً خصوصاً بعد مقتل زعيمهم الروحي حسن البنا في عام 1949، تحت ضغط المنظر المصري الدوغمائي سيد قطب، الذي أدين فيما بعد وحكم عليه بالإعدام.

ومنذ ذلك الحين، تبنى قادة الإخوان المسلمين رسميًا مبدأ اللاعنف، لكن المنظمة كان لديها أنماط من الأعضاء الذين أصبحوا في بعض الأحيان متطرفين ويتركون جماعة الإخوان المسلمين منتقلين إلى جماعات أكثر تطرفًا.

ومما يزيد الأمور تعقيدا أن الكثير من عمليات الإخوان المسلمين لا تزال مخفية حتى يومنا هذا. وعلى الرغم من هذه السرية، فقد تمكنوا من الحصول على تأثير كبير في العالم العربي وهم في طليعة الضغط النشط على الإسلاموية في كل من العالم العربي والمجتمعات الإسلامية في جميع أنحاء العالم. ومن المعروف على سبيل المثال، أنهم نشطوا سياسياً في دول الخليج، بما في ذلك جهودهم المبذولة للاستيلاء على السلطة السياسية خلال الانتخابات. ومن خلال شعارهم «الإسلام هو الحل»، تمكنوا من جذب الدعم الضمني لجزء كبير من العالم الإسلامي، ووضع أنفسهم كمجددي الإسلام (الصحوة الإسلامية)، والترويج للإسلام السياسي، باعتباره السبيل لحل القضايا الاقتصادية والاجتماعية العالمية.

وكجزء من نجاحهم، لا ينبغي للمرء أن يتجاهل جهودهم الشعبية والاجتماعية الواسعة في مجالات مثل التعليم والرعاية الصحية والتنمية الاجتماعية والمجتمعية.

وهذا هو العامل الذي يفسر إلى حد كبير شعبيتهم خلال الانتخابات، والتي تراكمت في الفوز في الانتخابات (التي أجريت ديمقراطياً) في مصر بعد فترة قصيرة من الربيع العربي الذي أوصل جماعة الإخوان المسلمين رسميًا إلى السلطة في عام 2012 مع انتخاب العضو البارز في جماعة الإخوان المسلمين محمد مرسي رئيسًا.

ولكن أيضًا في تونس، والمغرب (من خلال حزب العدالة والتنمية)، وتركيا (حزب العدالة والتنمية)، والعديد من الدول العربية في الشرق الأوسط، تمكنت جماعة الإخوان المسلمين من الفوز أو محاولة الفوز بالسلطة السياسية من خلال العملية الانتخابية. وفي أوروبا تجري عملية مماثلة من خلال إنشاء الأحزاب الإسلامية والتأثير على الحركات الإسلامية والمساجد.

ربما يقدم لنا مثال رئاسة مرسي أفضل وصف للأجندة الحقيقية لجماعة الإخوان المسلمين؛ فبعد أن أنكرت الجماعة في البداية رغبتها في الترشح للرئاسة، أشادت رسميًا بقيم الديمقراطية والحرية في الصحافة، لكنها استخدمت خطاباً مغايراً أمام جماهيرها الأقرب. وبعد وقت قصير من وصوله إلى السلطة، أصدر الرئيس مرسي مرسوما رئاسيا يمنح نفسه سلطات، بعيدا عن متناول أي محكمة أو قاض، للتحايل الفعال على الديمقراطية ولإعداد دستور جديد من خلال لجنة يهيمن عليها الإسلاميون. وعندما تجمع المتظاهرون السلميون حول قصر الرئيس، اجتذبت حشود من الإخوان المسلمين الحشد بعنف (مما أدى لاحقا إلى فقدان مرسي دعم الشعب ليتم عزله في وقت لاحق في انقلاب).

ومع أخذ هذه التجربة في الاعتبار، تستخدم جماعة الإخوان المسلمين تكتيكات واستراتيجيات وبرامج مختلفة حسب البلد الذي تعمل فيه. ففي تونس، استلهم حزب النهضة أفكار جماعة الإخوان المسلمين وشارك في العملية الديمقراطية.

واليوم أصبحت جزءاً من الائتلاف الحاكم بعد تعبيرها عن استعدادها لتقديم تنازلات رسمية بشأن بعض أهدافها الأكثر دوغمائية وقبولها بدلاً من ذلك القيم الديمقراطية العلمانية في تونس وحماية السلم الاجتماعي (وبالتالي تجنب العنف على الطراز المصري)، لكن هذه الاستراتيجية لا تخلو من انتقادات من قاعدتها الشعبية من جهة، واتهامات بازدواجية الكلام من جهة أخرى.

في تركيا، نجد أيديولوجية الإخوان المسلمين في حزب العدالة والتنمية الذي يتزعمه الرئيس أردوغان. وعلى الرغم من كونه حزبًا علمانيًا رسميًا أظهر نفسه في البداية مؤيدًا للغرب ولاقتصاد السوق الليبرالي ولأوروبا، إلا أنه بعد أكثر من 15 عامًا في السلطة، أصبح من الواضح الآن كيف تشكل الأيديولوجية الإسلامية الكثير من سياسات حزب العدالة والتنمية بتركيا، حتى أن هناك مزاعم بأن المبادئ الدستورية العلمانية التركية يتم تقويضها تدريجياً.

والنمط الظاهر هو أنه على الرغم من خطابها الرسمي عن اللاعنف ودعم الديمقراطية، فإن حركة الإخوان المسلمين لا تزال تستلهم في الغالب من أفكار الأيديولوجي المصري سيد قطب، وهي أيديولوجية تتعارض مع القيم العلمانية والديمقراطية الأوروبية والإعلان العالمي لحقوق الانسان. علاوة على ذلك، كانت الأفكار في كثير من الأحيان مصدر إلهام لشرعية التطرف والعنف.

المفاهيم الأيديولوجية الرئيسية للإخوان

إن الشرح القصير للمفاهيم الأيديولوجية الثلاثة قادر على تقديم نظرة ثاقبة على شخصيتهم الشمولية ودوافعهم وأهدافهم الأعمق:

- البيعة لجماعة الإخوان المسلمين؛
- المفهوم الوثني أو الجاهلي؛
- مبدأ التمكين.

في البداية، يجب على كل عضو في جماعة الإخوان أن يؤدي قسما للإخوان المسلمين بالكلمات التالية: «أبايعك بعهد الله وميثاقه على أن أكون جندياً مخلصاً في جماعة الإخوان المسلمين، وعلى أن أسمع وأطيع في العسر واليسر والمنشط والمكره إلا في معصية الله، وعلى أثرة عليّ، وعلى ألا أنازع الأمر أهله، وعلى أن أبذل جهدي ومالي ودمي في سبيل الله ما استطعت إلى ذلك سبيلاً. والله على ما أقول وكيل؛ فمَن نكث، فإنما ينكُث على نفسه ومَن أوفى بما عاهد عليه اللهَ فسيؤتيه أجراً عظيماً».

ومن الواضح أن ثقافة الطاعة المطلقة والولاء لدى الأعضاء لقيادة الإخوان المسلمين، وخاصة لـ «مكتب الإرشاد» التابع للمنظمة وقائد هيئتهم التمثيلية المحلية، تختلف بشكل كبير عن القيم الديمقراطية الغربية. ومن خلال مدونة سلوك داخلية وقانون، يمارس مكتب الإرشاد سيطرته على كامل هيكل جماعة الإخوان المسلمين، والمنظمات التابعة لها والمرتبطة بها، وأعضائها. ويمكن معاقبة عصيان عدم الولاء من خلال الغرامات أو خفض الرتبة أو تجميد العضوية أو حتى الطرد من المنظمة.

لقد أنشأ مؤسس الجماعة حسن البنا نظامًا يضمن الولاء والطاعة من خلال عملية تجنيد مستهدف وتلقين متقن يعتمد على استراتيجية طويلة المدى، حتى يتمكن الأعضاء في النهاية من تنفيذ الأوامر دون أسئلة أو تردد.

وكانت التجمعات «التدريبية» أو «التثقيفية» المنتظمة، التي يشار إليها باسم «اجتماعات الكتائب»، تُعقد في سرية تامة لترسيخ هذه الثقافة في جميع صفوف جماعة الإخوان المسلمين.

ويتم خلالها استخدام شعارات متكررة بشكل متكرر مثل «الله غايتنا، والرسول قدوتنا ومرشدنا، والقرآن دستورنا، والجهاد سبيلنا، والموت في سبيل الله أسمى أمانينا» دون أي سياق أو فهم أعمق.

علاوة على ذلك، فإن نشرة الإخوان المسلمين الأسبوعية التي تصدر في لندن، «رسالة الإخوان»، تحمل الشعار التالي المطبوع على أعلى غلافها: «الجهاد طريقنا، الشهادة سعينا».

وفي الموقع الرسمي للإخوان المسلمين يمكن العثور على الأيديولوجية التالية: «نريد فردًا مسلمًا، ووطنًا مسلمًا، وشعبًا مسلمًا، وحكومة ودولة إسلامية تقود البلاد المسلمة، وتضم الجاليات الإسلامية والدول المحرومة من الإسلام ومعيار الإسلام.

الجهاد والدعوة إلى الله. سيقبل العالم بكل سرور مبادئ الإسلام، ولن تنتهي مشاكل غزو العالم إلا عندما ترفرف راية الإسلام ويعلن الجهاد».

كل ما سبق يشير إلى الأيديولوجيا الشمولية للإخوان المسلمين، وهي تصور مطلق لكيفية تنظيم الحياة والمجتمع وما هو الصواب والخطأ، دون انفتاح على التغيير أو المؤثرات الخارجية، وفي معارضة شرسة لأي شخص أو أي شيء لا ينضم إليها، ومع قادتها باعتبارهم طلائعها وحماتها. ولذلك، فهي بطبيعتها ثورية وظالمة وتتنافى مع المجتمعات المنفتحة والتقدم.

أما المفهوم الإيديولوجي الثاني، فيرتكز على تفسير سيد قطب لـ «الجاهلية» ومعارضته لها. وتشير الجاهلية في الإسلام إلى الفوضى والهمجية والوثنية التي ميزت الثقافة والمجتمع العربي قبل قدوم التعاليم الإسلامية.

ومع ذلك، في كتاب قطب «معالم في الطريق» (محور تفكير الحركة الإسلامية المصرية بين 1967 و1981، والذي لا يزال مؤثرًا جدًا حتى اليوم على جماعة الإخوان المسلمين وغيرها من الجماعات والأفراد المتطرفين)، أصبحت الجاهلية هي المفهوم الأساسي للنظرة العالمية الإسلامية الثنائية: إما سيكون العالم إسلامياً أو جاهلياً؛ وأولئك الذين لا يختارون الإسلام يُعتبرون تلقائيًا «كفارًا»؛ أي غير مؤمنين يحتاجون إما إلى «التنوير» بالعقيدة الإسلامية أو الخضوع لنظام الحكم الإسلامي.

وعلى هذا النحو، يجب على المسلمين الانخراط في «الجهاد» والنضال ومحاربة جهل الجاهلية وظلماتها. وهذا ليس فقط ضد غير المسلمين، بل أيضًا ضد المسلمين الذين انحرفوا عن نسختهم المسيسة للإسلام، وهم أولئك الذين لم يعتنقوا الشريعة الإسلامية، ويخضعوا لها بشكل كامل ويشاركوا في الجهاد بأنفسهم.

لن تنتهي هذه المعركة إلا بإقامة خلافة إسلامية مع الطاعة المطلقة للشريعة لكل من المسلمين وغير المسلمين؛ لأنه فقط مع سيادة حكم الله للمجتمع سوف يتحرر هذا الأخير من الجاهلية. وهذه نظرة إمبريالية للعالم، ومن سخرية القدر ولكن ليس من قبيل الصدفة، فهذا بالضبط ما اعترضت عليه جماعة الإخوان المسلمين واحتشدت ضده عند تأسيسها؛ فكم من مرة لا يصبح المرء بالضبط ما يقاومه، وهل تجلب الثورة المزيد من الشيء نفسه؟

بناءً على مفهوم قطب للجاهلية والجهاد، وسعت جماعة الإخوان المسلمين هذه الأهداف إلى ما وراء الحدود الوطنية كمحاربة بعض الأنظمة القمعية أو الفاسدة أو الجاهلة، نحو قضية عالمية دون حدود جغرافية تعتمد على تحريف مفهوم الأمة؛ الأمة الأصلية تعني مجتمعاً منظماً يتكون من المواطنين.

في الصحيفة، التي يشار إليها غالبًا بدستور المدينة المنورة في زمن النبي، كانت الأمة تضم المسلمين وغير المسلمين (المسيحيين واليهود والأديان الأخرى والوثنيين). ويهدف الإعلان إلى توحيد القبائل المختلفة في المدينة المنورة، حيث تكون كل قبيلة مسؤولة عن السلوك العام لأفرادها وفقًا لعاداتهم وتقاليدهم، بينما يجب على الأمة ككل العمل معًا لفرض النظام الاجتماعي والأمن ومواجهة الأعداء في أوقات الحرب والسلام. بالنسبة إلى الإخوان المسلمين والإسلاميين، أصبحت الأمة مجتمعًا افتراضيًا من المسلمين يتكون من مواطنين أيديولوجيين (الأمة) يتحدون افتراضياً (في الفضاء الإلكتروني) في كفاحهم ضد الجاهلية، مما يمنحهم الهوية الذاتية والشعور بالانتماء والهدف. ومعه أيضاً غُرس المنطق الثنائي بينهم وبين الآخرين، فهم المؤمنون والضحايا والصالحون؛ وهم الجهال والظالمون والفاسدون. منطقهم يحظر أيضًا الاهتمام أو الحب، وبدلاً من ذلك يحظر الكراهية باسم الإيمان.

ومن الجدير بالاهتمام أن نأخذ بعين الاعتبار أن مفكرين إسلاميين مؤثرين آخرين مثل أبا الرحمن الكواكبي (1854-1902) يؤمنون بالتفوق الأخلاقي للعرب على غير العرب ومع ذلك فإن الإسلام لا يمكن أن يزدهر إلا إذا حُكم من قبل العرب من مكة على يد خليفة عربي (في الواقع ليس حتى عربياً، بل عربياً من قبيلة محمد الأصلية)، مما يظهر بوضوح الميول العنصرية التي لا تزال موجودة حتى اليوم. لذا، وبعيدًا عن الشمولية، فإن هذه الأيديولوجية عنصرية وحصرية ومثيرة للانقسام.

إن المفهوم الأيديولوجي الثالث المستخدم هو التمكين، ويُستخدم هذا المصطلح في القرآن لتصوير العلاقة والمسؤولية المتبادلة بين «الربوبية» و«العبودية»، على سبيل المثال بين الله والبشر، ولكن أيضًا بين الحكم على الأرض بصفة خليفة/وكيل من الله.

تنطبق هذه العلاقة على الصلة بين الشخص وجسده، وبين الزوج والزوجة، والآباء والأطفال، والمعلم والطالب، وصولاً إلى تلك بين القيادة السياسية (وغيرها من أشكال) القيادة ومنتخبيهم من الشعب، وتقضي الفكرة أنه لبلوغ الحكم الرشيد والانسجام فإن كلا الجانبين لديهما مجموعة خاصة بهما من المسؤوليات المتشابكة. ومن ثم يجب على القائد أن يخدم جماهيره على أساس الصلاح والحقيقة، وعلى المنتخبين مسؤولية قبول السلطة.

لقد قام الإخوان المسلمون بمراجعة مفهوم التمكين، حيث يعني تفوق شكل قيادتهم على أي شخص آخر بناءً على تفوق دينهم، وبالتالي الالتزام بإقامة علاقة «السيادة» و«العبودية» بينهم وبين بقية العالم.

تتمثل الاستراتيجية المقابلة في «التسلل» إلى المجتمع لتولي مناصب السلطة والمسؤولية في المجتمع سرًا، أي دون الكشف عن دوافعهم العميقة، ثم استخدام هذه المناصب لتقويض الدولة بمجرد أن تصبح قاعدة السلطة قوية بما يكفي كهدف نهائي لإقامة دولة الخلافة.

وكجزء من التمكين، تنخرط جماعة الإخوان المسلمين في بناء المساجد وشراء العقارات وبناء المدارس الخاصة وحتى الشركات. ويتم التسلل أيضًا من خلال ثلاث وسائل: الاحتواء، الذي يستخدم موارد الدولة لنشر تعاليمهم وأيديولوجيتهم وتنظيمهم (على سبيل المثال كمدرسين تدفع لهم الحكومة أو منظمات غير ربحية مدعومة)؛ التعايش، من خلال تولي مناصب النفوذ داخل الدولة؛ والتحييد، لتجنب التدقيق أو اتخاذ إجراءات ضد جماعة الإخوان المسلمين.

وكما هو الحال مع البيعة والجاهلية، فإن هدف التمكين، كما يفهمه الإخوان المسلمون، هو الهيمنة على منطقة أوروبا من أجل ضمها إلى دولة إسلامية.

اتحاد المنظمات الإسلامية في أوروبا، باعتبارها المنظمة الجامعة للإخوان المسلمين في أوروبا

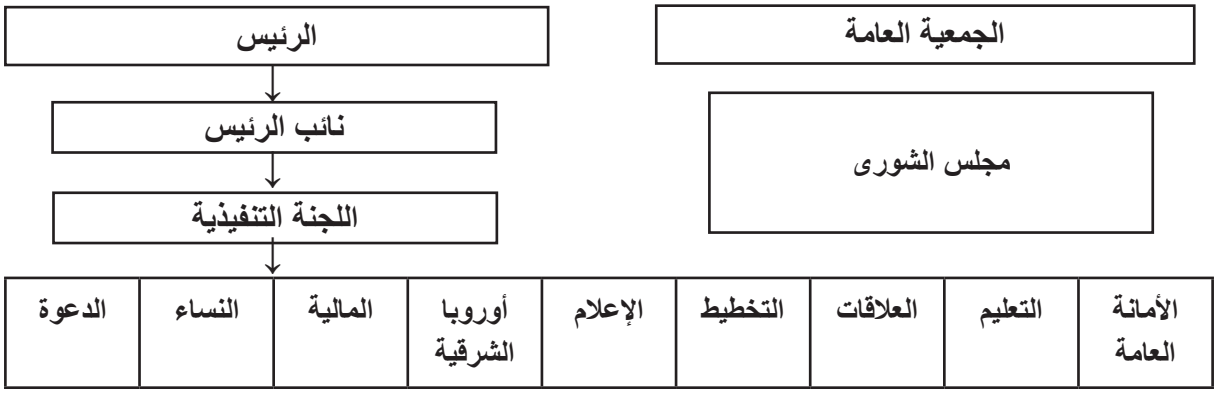

يتكون الهيكل التنظيمي لاتحاد المنظمات الإسلامية في أوروبا، كما هو موضح في الصورة أعلاه، من مئات الشبكات المستقلة والهياكل المرتبطة بها والمنظمات الأعضاء. ومن خلال هذا الهيكل، تستطيع جماعة الإخوان المسلمين السيطرة على نفوذ هائل من خلال منظمة صغيرة نسبيًا تتسم إلى حد كبير باللامركزية والرشاقة والقابلية للتكيف، وبالتالي يصعب أيضًا تفكيكها.

ويعتبر معظم أعضاء الاتحاد من المنظمات غير الربحية والمساجد والمدارس والمؤسسات التعليمية والمنظمات الثقافية والاجتماعية والمراكز الإسلامية والأندية الرياضية. والبعض الآخر عبارة عن كيانات متخصصة تعمل حول أهداف محددة مثل اتحاد المنظمات الإسلامية في أوروبا؛ والمعهد الأوروبي للعلوم الإنسانية، بتمويل جزئي من

مؤسسة قطر؛ والجمعية الأوروبية للأئمة والمرشدين الروحيين؛ والمنظمات الأوروبية للشباب والطلاب المسلمين والمجلس الأوروبي للفتوى والبحوث وصندوق أوروبا - بهدف تطوير مجموعة من الأصول المخصصة لتمويل المشاريع الاجتماعية والاقتصادية للمجتمعات في أوروبا.

إن دراسة مهام وأنشطة كل من هذه المنظمات تقدم فهمًا أفضل للانتشار الواسع لجماعة الإخوان المسلمين وتأثيرها من زوايا متعددة.

ومن خلال تلك المنظمات، تتبع جماعة الإخوان المسلمين استراتيجية تتمثل في الحصول على الدعم والتأثير على المجتمعات الإسلامية الأكبر حجمًا. أولاً، من خلال الاحتكار التدريجي للتعليم الإسلامي والكتب والموارد التعليمية الأخرى والمساجد والمؤسسات الإنسانية ووسائل إعلام تستهدف المسلمين. ومن ثم نقل الخطاب من المشاركة في الأنشطة إلى الوعي السياسي؛ ومن خطاب ديني إلى خطاب أيديولوجي؛ ومن هناك نحو الهيمنة.

الإخوان المسلمون في بلجيكا

تتكون جماعة الإخوان المسلمين في بلجيكا من ستة خطوط أو دوائر رئيسة:

1. الخط المصري عبر رابطة المسلمين البلجيكيين (LMB)؛
2. الخط السوري عبر شبكة الطلائع والتي تنشط انطلاقاً من أحد أكبر المساجد في بلجيكا، مسجد الخليل؛
3. الخط التونسي عبر حزب النهضة؛
4. الخط التركي، عبر كل من حزب العدالة والتنمية وديانت؛
5. الخط المغربي عبر حزب العدالة والتنمية وجماعة العدل والإحسان؛
6. الخط الكويتي عبر الإخوان المسلمين الكويتيين.

وعلى سبيل المثال، تتطرق رابطة المسلمين البلجيكيين لعضويتها في اتحاد المنظمات الإسلامية في أوروبا في نظامها الأساسي الخاص بها ويتضمن بندًا ينص على أنه في حالة حل المنظمات، يتم نقل أصولها إلى الصندوق الأوروبي. وبموجب التوقيعات الحادية عشر لعقد التأسيس في عام 2006، فإن الاثنين لهما أيضًا صلاحيات في منظمات أخرى مرتبطة بهيكل الإخوان المسلمين في بلجيكا.

تأسس المجمع الثقافي التربوي والإسلامي في فيرفييه (CECIV) في عام 2004 من قبل الرابطة الإسلامية للثقافات البلجيكية (LIIB) وهي إحدى المنظمات الأعضاء في اتحاد المنظمات الإسلامية في أوروبا في الفترة 2001-2002. وقد شاركت الرابطة الإسلامية للثقافات البلجيكية بشكل فعال في أنشطة الإخوان المسلمين مثل رعاية وتنظيم مؤتمرات (في بلجيكا) حول محاضرات كبار أعضاء الإخوان المسلمين مثل طارق وهاني رمضان والمنظمات الأخرى التابعة لاتحاد المنظمات الإسلامية في أوروبا، وفي أنشطة مشتركة مع منتدى المنظمات الأوروبية للشباب والطلاب المسلمين، والتوقيع المشترك على عريضة مع 24 منظمة أخرى أعضاء في اتحاد المنظمات الإسلامية في أوروبا.

خاتمة

انطلاقاً من كونها حركة محلية ضد القوى الاستعمارية في مصر، تطورت جماعة الإخوان المسلمين لتصبح واحدة من أكبر الحركات الإسلامية وأكثرها عالمية، حركة ذات نطاق وعمليات واسعة النطاق وتنشط بشكل متزايد في أوروبا. وقد تحول مركزها المالي بشكل متزايد إلى إسطنبول والبلقان والمملكة المتحدة وأيرلندا، إلا أن المركز يقع في بروكسل بهدف التعبئة واللوجستيات.

وقد ظهرت أيديولوجيتهم، التي تأثرت بسيد قطب، في البداية كبديل إسلامي ضد ظهور أيديولوجيات جديدة بعد الحرب العالمية الثانية مثل الاشتراكية والشيوعية والرأسمالية والليبرالية التي تعتبر كل منها غير متوافقة مع الإسلام. من خلال هذه الأيديولوجية، سيؤسس الإخوان المسلمون مرة أخرى هوية ذاتية وتقديرًا لذاتهم، وهو نموذج وهدف مشترك يسمح لهم بالوقوف ضد تعرضهم للاضطهاد بشكل متزايد من قبل الأيديولوجيات الأخرى. ليتوسع هذا الهدف بشكل تدريجي جغرافيًا وفي مهمته، ليصل إلى هدف استعادة الخلافة خارج حدودها السابقة.

وفي أوروبا، ينصب التركيز الحالي على توظيف وتدريب الأعضاء الذين لديهم القدرة على «التطور» بشكل أكبر واختيارهم كأعضاء من المستوى الرابع، ومواصلة تطوير الهيكل التشغيلي المحلي. ومما يثير القلق أن هذه العملية تظهر العديد من أوجه التشابه مع الاستراتيجيات والتلقين الذي استخدمته الحركات الجهادية في نهاية التسعينيات، حيث استخدمت أوروبا كمركز للعمليات اللوجستية والإعلامية وإعدادها للمرحلة التالية من خطتها.

ووفقا للتقديرات، فقد أنفقت جماعة الإخوان المسلمين بالفعل أكثر من 260 مليون يورو في أوروبا على المشاريع والعمليات.

عن مركز بروكسيل الدولي

مركز بروكسيل الدولي هو مؤسسة فكرية مستقلة غير ربحية مقرها في عاصمة أوروبا، يلتزم المركز بتطوير حلول لمعالجة الدوافع الدورية لانعدام الأمن والهشاشة الاقتصادية والصراع في الشرق الأوسط وشمال أفريقيا. هدفنا هو جلب قيمة مضافة إلى أعلى مستويات الخطاب السياسي من خلال وضع القضايا النظامية في مقدمة نقاشاتنا.

الكاتبان

إبراهيم لايتوس - رئيس قسم أفيرا
ويم فان لاير - مستشار، قسم أفيرا

جميع الحقوق محفوظة © 2023

المركز العربي لدراسات التكرف
The Arab Center for Extremism Studies